المحاضرة العاشرة.

الاتجاه التجريبي: لوك وأسس المعرفة التجريبية

أخذ "**لوك**" على عاتقه مشروع تأسيس بحث يتعلق بالمعرفة البشرية، و ذلك من خلال الهدف الذي سعى إلى تحقيقه، و الذي وصفه بأنّه: « البحث في أصل و حدود المعرفة البشرية و يقينها، مع بيان أسس درجات الاعتقاد و الظن و الموافقة»[97]. ويندرج هذا العمل ضمن ما يعرف بـ(مبحث المعرفة). يصف مؤرخو الفلسفة العصر الحديث بـ"**العصر الذهبي**" لنظرية المعرفة[98]. فقد عالج "**ديكارت**" مشكلة اليقين، أمّا في "**إنجلترا**"، فقد كتب "**فرنسيس بيكون**" و"**هوبز**" عن المعرفة البشرية، إلاّ أنّ "**لوك**" في الواقع كان « أول فيلسوف كرّس وخصّص عمله الرئيس للبحث في الفهم البشري، مجاله وحدوده»[99].

وما يفترض أنّ تعالجه نظرية المعرفة، هي أنّ تجيب عن جملة من التساؤلات تتعلق بـ: هل هناك حقيقة؟ , إذا كانت كذلك، هل هي ذاتية أم موضوعية؟، وهل بإمكان الإنسان أنّ يدركها؟، وبأي الوسائل يمكنه ذلك؟، أبالحس أم العقل أم الحدس؟،

ويركز "**لوك**" في عمله الفلسفي هذا على أنّه لكي نكتشف حدود معرفتنا، أو إلى أي مدى يمكننا أنّ نعرف، و بأي طريق يتسنَّى لنا ذلك، حريّ بنا أولاً أنّ نحدد على ماذا تحتوى أو تتضمن المعرفة؟.

يعتقد"**لوك**" أنّ الإجابة عن هذه الأسئلة، تقتضي مبدئياً بيان كيفية الحصول على المعرفة. تلعي الفكرة الدور المحوري في المعرفة، إذ يعبر عن « كلّ شيء يكون موضوعاً للذهن حين يفكر إنسان ما»، ثمّ يضيف « و المقصود باستخدام هذا هو ما نعنيه بالصورة الوهمية (***Fantasm***)، المفهوم (***Notion***)، و النوع (***Species***)، أو أي شيء يمكن أنّ يستخدمه العقل في التفكير »[100].

---

[97]) - John Locke., An Essay Concerning Human. Understanding,(London; George Routledge and sons limited-N.Y:E P. Duton and Co.).book1. chap 1. p:1.

[98])- فؤاد زكريا، نظرية المعرفة، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، 1962، ص 8.

[99])- F. Coplestion. A History Of Philosophy. Image books. New . York .p 81.

[100])- John Locke. An Essay Concerning H.U.op.cit p:4

الفكرة عند "**لوك**" إذن تلعب دوراً أساسياً ، و لذلك ركّز بحثه على الفكرة، فتساءل عن مصدر الأفكار التي نملكها. لكن قبل البحث في مصدر أفكارنا، قام بنقد مذهب الأفكار الفطرية (***Innate ideas***)،

<u>نقد الأفكار الفطرية:</u>

يهاجم "**لوك**" مذهب الأفكار الفطرية الذي يدعي فيه أصحابه « أنّ في العقل بعض المبادئ الفطرية، بعض المفاهيم الأولية (***Primary notions***)، الحروف (***Characters***)، كما لو أنّها طبعت على عقل الإنسان منذ أنّ وجد وجاء بها إلى العالم»[101]. و يقصد "**لوك**" بهجومه هذا– رغم أنّه، لا يذكر دائماً أسماء خصومه، ماعدا (***Lord Of Churbury***)[102]– المدرسة العقلية بصورة خاصة، و أيضاً المدرسة الأفلاطونية الحديثة في "**كامبريدج**". و نقد "**لوك**" للأفكار الفطرية، ينقسم إلى مستويين، مستوى يتعلق بالأفكار الفطرية النظرية، ومستوى يتعلق بالأفكار العملية:

1 – **مبادئ فطرية نظرية**(***Speculative***): و التي تعني القضايا المنطقية الواضحة بذاتها كقانون الهوية، ومبدأ عدم التناقض ، و يمكن إجمال مناقشة "**لوك**" لهذه المبادئ كالآتي:

أنّ بإمكان النّاس فقط استخدام قدراتهم الطبيعية أنّ يحصلوا على كلّ المعرفة التي يملكون، دون أي مساعدة أو حاجة إلى مثل هذه الانطباعات الفطرية (***Innate impressions***)، و قد يحصلوا على اليقين بدون مثل هذه المفاهيم والمبادئ[103].

أمّا فيما يتعلق بحجيّة الإجماع و الاتفاق الحاصل عليها من كلّ النّاس لتبرير صدق هذه المبادئ النظرية عند أنصار الذهب الفطري ، ف"**لوك**" يرد على هذا ،في كون الإجماع و الاتفاق لا يعدّ دليلاً على صدق و فطرية هذه المبادئ « إلاّ إذا تبيّن لنا – يقول "**لوك**"، أنّ لا طريق للحصول على المعرفة سوى هذا الطريق »[104]، و حتى مسألة الإجماع غير متحققة

---

101) - John Locke. An Essay Concerning H.U. in A. J. Ayer. And R. Winch (eds). British Emprical Philosophers. Book 1. ch2. Op. Cit. Pp 34-35.

102)- انظر: إميل بريهيه ، تاريخ الفلسفة، ، ترجمة جورج طرابيشي. دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت، ط:2. 1993. ص 330 و ما بعدها.

103) - John Locke. An Essay Concerning H.U. Book 1. ch2.sect:1 op. cit. p: 12.

104)- *loc. cit*..

على المبادئ النظرية كقانون الهوية، إذ لا يوجد إجماع عام على صدقها، « فالأطفال والبله(البلهاء) لا يملكون أي فهم أو تفكير فيها، و هذا يحطم مسألة الإجماع» [105].

ولو كانت في العقل منذ الولادة لأدركها الإنسان. هذا فيما يخص نقد "**لوك**" للمبادئ النظرية.

2 – **أمّا المبادئ العملية (*Practical*)**: و التي تتعلق بالمبادئ الأخلاقية العملية وأيضاً بالمعتقد الديني[106]، فنقد "**لوك**" ينصب على تباين الآراء و اختلاف المجتمعات من عصر لآخر، و لو كانت فطرية لكانت محل اتفاق. هذا الاتفاق ينعدم في الأفكار الواضحة النظرية فما بالك في المبادئ العملية ؛ فأقوى هذه المبادئ، وجود "**الله**"، لكننا نجد اختلافاً بيناً بين النّاس، و نجد أقواماً لا يؤمنون بـ"**الله**". فإذا كانت المبادئ النظرية لم يوجد حولها اتفاق عام من طرف كلّ النّاس كما رأينا، فإنّ القواعد الأخلاقية تكون أكثر صعوبة في إيجاد الاتفاق حولها مثل مبدأ الهوية[107].

–و هجوم "**لوك**" هنا لا يستثني الأفكار الفطرية سواء التي هي موجودة، بنظر البعض، بالقوة أي على شكل هيئة أو إمكان و التجربة ضرورية لتحصيل ذلك، أو التي اعتبرت موجودة بالفعل.

و بعد هذا الهجوم على مذهب الأفكار الفطرية بنوعيها النظرية و العملية، و الذي يمثل الجانب السلبي في نظرية المعرفة عند "**لوك**"،يشرع في بيان الجانب البنائي، و من ثمّة تساءل عن مصدر أفكارنا، و كيفية الحصول عليها. و كيف توظف هذه الأفكار لإنتاج المعرفة.

<u>التجربة أساس الأفكار</u>:

يقول "**لوك**":« دعنا نفترض إذن، أنّ العقل صفحة بيضاء، خال من كلّ الحروف و الرموز، و بدون أي أفكار، فمن أين تأتث؟... و من أين حصل على كلّ مواد التفكير والمعرفة؟ .و لهذا أجيب بكلمة واحدة، من التجربة(***Experience***)،ففيها تقوم كلّ معرفتنا وملاحظاتنا، سواء انصبت على الموضوعات الخارجية الحسية، أو انصبت على عمليات العقل الداخلية التي ندركها و

[105])- Ibid. sect 5. p 13..
[106]) – Ibid.chap.III.pp:26.42.
[107])- Ibid. ch 3. Pp 38-39.

نتأملها، هي التي تزود أذهاننا بكلّ مواد التفكير: هذان هما المصدران الوحيدان للمعرفة، و منهما نحصل على كلّ أفكارنا»[108], و من هذا النص يمكننا أنّ نلاحظ و نستنتج مصدرين للمعرفة:

-**موضوع الإحساس (*Sensation*)**: و هو المصدر الأول و الأساسي لكثير من الأفكار التي يملكها الإنسان، فعندما تتأثر حواسنا بالموضوعات الخارجية، ينقل هذا التأثير إلى الذهن على شكل إدراكات متميّزة للأشياء، فيتكون لدينا أفكار الإحساس كالأفكار المتعلقة باللّون بالذوق...الخ.

- **موضوع التأمل (*Reflection*)**، و هو الذي يزود العقل بمجموعة من الأفكار، عندما يتأمل عملياته الداخلية من تفكير، إرادة وشك... و هكذا، فمصدر جميع أفكارنا، إمّا التجربة الخارجية، أو التجربة الداخلية. يقول "**لوك**" : «..هذان المصدران، أقول، الأشياء الخارجية المادية كموضوعات الإحساس، والعمليات الداخلية العقلية كموضوعات التأمل، هما بالنسبة لي الأصول الوحيدة التي تنشأ منهما كلّ أفكارنا» [109].

كما أنّ العقل – عند "**لوك**" – لا يفكر إلاّ فيما يحصل عليه من الإحساس، و لا يمكن أنّ نتصور حصول العقل على أفكار قبل أنّ يرتبط بالإحساس. « فالنفس لا تفكر دائماً»[110]، كما أنّ ملاحظاتنا عن الأطفال، تعطينا أكثر وضوح لهذين المصدرين، فكلّما اتسع مجال الأفكار الحسية اتسع مجال أفكار التي مصدرها التأمل[111].

و الأفكار التي نحصل عليها من هذين المصدرين، هي ما تعرف بالأفكار البسيطة، حيث يكون العقل سلبياً و متلقياً و غير فعّالٍ، إذ لا يلعب أي دورٍ في إيجادها من جهة، و من جهة أخرى تمثل هذه الأفكار الوحدة الأساسية لكلّ معارفنا. يقول "**لوك**": « ... إنّ هذه الأفكار تعتبر الأدوات لكلّ معارفنا، و العقل ليست لديه أي قدرة إمّا على تكوينها أو على هدمها»[112]. و هكذا فالأفكار البسيطة عند "**لوك**" هي المواد الأولية للمعرفة.

---

[108])- John Locke. An Essay Concerning H.U. book 2. Ch 1. Sect 2. op.cit. P 59.
[109])- Ibid. book 2. Ch 1. Sect 4. P 60.
[110])- Ibid. book 2. Ch 1. Sect 10. p 62.
[111])- Ibid. book 2. Ch 1. Sect 6. p 61.
[112])- Ibid. book 2. Ch 2. Sect 4. Pp 70-71.

و عند حصول العقل على هذه الأفكار، يوظفها كمواد أولية لإنتاج أفكار جديدة، وهنا فقط يظهر الدور الفعال و الإيجابي للعقل، أي تكون له القدرة على إيجاد أفكار جديدة. يسميها "**لوك**" بالأفكار المركبة. « فالإنسان باستطاعته أنّ يكون فكرة جديدة من فكرتين أو أكثر من الأفكار البسيطة... و بطريقة إرادية، و يمكن اعتبار ذلك فكرة واحدة و باسم واحدٍ»[113]. فمثلاً، حينما نقوم بجمع الأفكار البسيطة الآتية: البياض، الحلاوة، الصلابة... فإنّنا نحصل على فكرة مركبة عن قطعة السكر، لنعتبرها بعد ذلك، فكرة واحدة لها اسم واحد يشير لها ككل.. و العقل في تكوينه لهذا النوع من الأفكار يستخدم الأفكار البسيطة بطرق ثلاثة:

-إمّا عن طريق الجمع بين فكرتين بسيطتين أو أكثر في فكرة واحدة، وهذا ما يعرف بالتجميع أو التركيب، مثل فكرة إنسان.

-و إمّا عن طريق المقارنة بين فكرتين دون توحيدهما في فكرة واحدة، وهذا ما يعرف بالمقارنة و الأفكار الناتجة عن ذلك تعرف بأفكار الإضافة. مثل فكرة البنوة.

-و إمّا عن طريق تقسيم الأفكار و عزل فكرة عن كلّ الأفكار الخاصة الأخرى التي تصطحبها في الوجود الواقعي، و هذا ما يعرف بالتجريد، وهذه هي الأفكار المجردة[114].

و من هذا نخلص إلى أنّ الفكرة سواء البسيطة منها أو المركبة هي حد أو أساس المعرفة، مع الإشارة دائماً إلى إرجاع المعرفة إلى الأفكار، و الأفكار المركبة إلى الأفكار البسيطة، و هنا يظهر دور الفكرة البسيطة و أهميتها. و المعرفة في الأخير تغدو – عند "**لوك**" لا شيء، بل هي فقط، إدراك للترابط و التوافق و الاختلاف و التنافر بين أفكارنا... و في هذا وحده تقوم المعرفة.

النظرية العلّية والتمثيلية عند لوك:

يرى "لوك" أنه من الأهمية بمكان أن نفرق بين الأفكار في الذهن والأشياء في العالم الخارجي فما العلاقة بينهما؟ معرفة هذه العلاقة هي جوهر نظرية العلية في المعرفة والإدراك، وعلينا أن نحدد أولا المقصود بالعالم الخارجي، إنه العالم الفيزيائي المادي وما يحتويه من موضوعات

113)- F. Compleston. A history of philosophy. Op cit. p 90.
114)- John Locke. An Essay Concerning H.U. book 2. Ch xii. Sect 1. Pp 108-109.